الثور الجريح!

زهيرة البيلى

خيم الصمت على الشقة الصغيرة. وتبودلت النظرات.. المرأة حسناء تعمل «مانيكان» عند بائع فراء مشهور، والرجل مهندس ضخم وقوى.. ظلت المرأة تحوم حوله كأنها «مصارعة» تلف وتدور حول ثور، وفى كل وقفة كان يتلقى طعنة أو وخزة دامية.

اطلقت نظراته السوداء من خلال رموشه الطويلة، أحد الرجل «الثور» ينظر للمرأة «المصارعة»، وعند كل وقفة يتلقى طعنة جديدة: لقد سئمتك أنت إنسان مريض لابد لك من العلاج. لقد انتهى كل ما بيننا أتفهم؟

كان الرجل ضخما، قويا حسن الهندام، لكنه يعرج قليلا.. مهندس ناجح فى الثانية والثلاثين من عمره. يعمل فى مصنع للسيارات، وأمام تلك الثورة لم يتحرك من مكانه ولم يتذمر. كما لو كان فاقد الحس تماما، ومع ذلك ظل يتابع كل ما يحدث حوله، ومن خلف رموشه السوداء الطويلة، أخذ يتأمل الشابة الشقراء صاحبة العيون الزرقاء، وهى تروح وتجئ داخل الشقة الأنيقة، عش الزوجية العذب.

تحاول الاحتكاك به، بتحد وغطرسة مثيرة، كأنها تقول له: «هيا.. دافع عن نفسك.. هاجمنى!»

لكن الذى حدث أنه لم يهاجمها على الإطلاق.. لأنه كان يتلعثم فى الكلام عندما يعانى من الانفعال أو الإثارة فلا يعرف الهجوم وهو يتلجلج فى حديثه.

شئ غريب حقا هذا السبب فضل الرجل الصمت والسكوت، عندما جمعت الشقراء بعض أدوات زينتها فى حقيبة صغيرة، وقد تركها دون أن يتحرك وعندما سمع صوت الباب من خلفها. لم يتزلزل مكانه ولم يبدو أيضا. حتى بعد أن سمع باب الأسانسير يعلن عن رحيلها.

لجأت الشابة إلى بعض الأصدقاء. قالت فى فرح وسرور: لقد تلقى ضربة قاضية على رأسه.. لكنه كان رزينا. بالرغم من أننى كنت أتوقع منه الكثير.. كم أنا سعيدة لأننى تركت المنزل.. سوف أسافر للاستجمام فى عطلة بلاية أسابيع. وعند العودة أننى ان يكون قد ترك المنزل؟

وفى نفس الليلة كانت المرأة الشقراء على موعد مع كاتب إيطالى مشهور، حيث يتوجهان إلى روما، ثم من ميناء إيطالى يرحلان على ظهر يخت إلى جزر «ايولى» فى آسيا الصغرى.

وفى نفس تلك الليلة أيضا مع الخارس الليل صراخا وعويلا ينبعث من نفس تلك الشقة الصغيرة. أحد الرجل «الثور» يصرخ ويحطم كل ما حوله. وعندما رجال البوليس فى اليوم التالى على أثاث المنزل محطما تماما، وفى حالة فوضى لايمكن وصفها.. الزجاجات الفارغة محطمة ومتناثرة فى كل مكان.. والسجاجيد والوسادات والمقاعد ممزقة تماما. والشوك والسكاكين غرست كلها فى الحائط، وبعد ذلك فر «الثور» من وسط الحطام. ليبدأ سباق الثيران الحقيقى. لكن فى الحقيقة لم يكن هذا هو الوجه الأول الذى أثار دهشة الناس. لأن الجولة الثانية كانت أشد خطورة وأكثر حساسية.

فقبل أعياد الفصح بثمانية أيام، فى عام ١٩٧٣. لاحظ صاحب إحدى العمارات فى روما انسياب سائل داكن اللون يخرج من تحت عتبة إحدى الشقق بالدور الثالث. على الفور وضع البوليس يده على منع هذا التدفق. وجدوا جسدا عاريا لخادمة شقراء شابة. وقد طعنت بوحشية لا مثيل لها.

وبلغت الطعنات ٣٠ طعنة بآلة حادة. والغريب أن القاتل قطع حصلة كبيرة من شعرها الأشقر. بواسطة «المقص».

أما الجولة الثالثة فكانت فى اليوم التالى. وبالقرب من إحدى الموانئ الإيطالية. وفى الساعة الثامنة والنصف فتحت الخادمة باب الحجرة رقم ١٧. فوقعت «صينية الافطار» من يدها على الأرض. ساخنة شقراء ألمانية ممدة على الأرض بالقرب من سريرها. عارية تماما تسبح فى بركة من الدماء.. وقد انتشر شعرها فى كل مكان بالغرفة. بعد أن اجتث بوحشية. وكانت فاقدة الحجرة مفتوحة على مصراعيها. والزهور متناثرة على الأرض بعد أن «دهست» بالأقدام لم تترك وراءها أى غموض.

لأن القاتل الذى استبقته المرأة فى حجرتها. فر من النافذة. وكان هذا فى حوالى الساعة الواحدة صباحا.

ان ذكرى أعياد الفصح عام ١٩٧٣ ظلت عالقة فى أذهان سكان جزر «إيولى» هذه المجموعة من الجزر التى تحمل الطابع اليونانى القديم. ومازالت باقية على حالتها من حيث الهدوء الخلاب الذى لا صناعة أو تكلف فيه. فى هذه القرية الخالية الهادئة يسير الناس بخطى محسوبة.. اكتشفت الضحية الثالثة بالصدفة عندما كان أحد رجال الدين عائدا الى منزله. فسمع فجأة صرخة استغاثة.. وهناك بعيدا عن شابة «مستغيثة» لاحدى الأشجار.. فى أول الأمر ظن الرجل أنها جريحة فرفع طرف ثوبه وأخذ يجرى متطلقا بين الأعشاب والأشجار. ولكن كانت المفاجأة، تسمر الرجل فى مكانه لأن الشابة عارية تماما ومربوطة بالشجرة.

وكانت شقراء ايطالية جاءت للنزهة مع بعض أصدقائها. وأرادت أن ترتفع التل لتصل إلى قرية صغيرة تحتا عن شئ ما ربما بعض الفاكهة أو الخضراوات فهاجمها رجل مسلح ونزع عنها ثيابها. ومن المؤكد أنه كان ينوى «اغتصابها». ثم فجأة غير رأيه وتركها موثقة بالشجرة، واحتى بين التلال.

لم تستطع الشابة المسكينة وسط دموعها الغزيرة، أن تضيف شيئا جديدا.. لم تفهم سببا لهذا الهجوم المفاجئ، ثم لهذا الهروب الغريب.. نظر إليها الرجل كثور هائج، وضع مسدسه جانبا ليخرج سكينا، هددها بها مرة واحدة، ثم تركها فجأة كما لو كانت لاتروق له.

فإذا كان هذا الجانى هو نفس القاتل أو نفس الثور فى الجريمتين السابقتين. فلماذا اذن ترك ضحيته؟ لقد لعب لعبته مع هذه الشابة المسكينة، لأنها لم تكن شقراء حقيقية، وهذا الشئ لا يتضح إلا عن قرب.

كان رئيس نقطة بوليس الجزيرة التى لا يزيد عدد سكانها على ٣٠٠ أو ٤٠٠ نسمة، على علم بكل تلك الأحداث والتطورات.. ولكن بعد أن أصبح الموقف أكبر منه. طلب الضابط المساعدات والتعزيزات من القادة. فأرسلت القوات البحرية بطائرة هيلوكوبتر وزورق بمحرك.. وكان رئيس نقطة البوليس قلقا.. إذ كيف يتمكن بمفرده من حماية ٤٠٠ رجل. هو عدد سكان الجزيرة. موزعين على مساحة تبلغ حوالى ٥٠ كيلو مترا.. فى ثلاث قرى منازلها متباعدة.. وحتى تصل الإمدادات العسكرية.. اتخذت الإجراءات الأولية التى تركزت فى تحذير سكان الجزيرة عن طريق الإذاعة مع احتياطات الأمن.. وقبل أن يأتى المساء كان عليهم أن يحكموا إغلاق النوافذ والأبواب.

أما اليوم التالى فكان يوم الجمعة المقدس. وفيه يقوم سكان الجزيرة بطلاء واجهة النوافذ وخلط النباتات المعطرة بلحم الخراف الشهى. ولكن فى هذا اليوم لم يشعر الناس بفرحة الأعياد. وأغلقت المحلات التجارية أبوابها. ولم تبدأ السوق كالمعتاد فى الصباح. لأن بالجزيرة رجلا مجنونا يقتل الشقراوات. حلقت الطائرة الهليكوبتر ماسحة الجزيرة كلها ذهابا وإيابا. كما تحرك الزورق فى دوريات منتظمة بطول الشاطئ وبلاتوقف. فوق الميناء الخالية من السياح انساب زورق بحارى للنزهة. رفع عليه العلم الإيطالى ليلفت نظر قارئ صيد. ووقف قائد الزورق مندهشا هذا المخدوء الغريب الذى نجم على الميناء. وبسرعة أخبره أحد الصيادين أن بالجزيرة مجنونا هاربا حاول ليلة أمس اغتصاب امرأة شابة. وأمام تلك الأنباء سأل قائد الزورق رفاقه. وهما امرأتان ورجل عما إذا كانوا يفضلون الذهاب الى جزيرة أخرى. أولا.. وأثناء هذا التردد خرج عليهم من شارع ضيق رجل قوى ضخم. كأنه كتلة متحركة. كان يرتدى بنطلون جينز وقميصا أبيض. اقترب منهم. ومن خلال رموشه السوداء الطويلة برزت نظراته الحادة. كان الرجل يعرج قليلا. وسألهم فى تلعثم عما إذا كانوا قد التقوا فى طريقهم بيخت أبيض جميل.

فأجاب أحد الركاب بالايجاب. وأن اليخت اتجه إلى جزيرة قريبة. ومرت اللحظات. ووسط هذا المخدوء المريب فى الميناء بدا وقع خطوات لم تتضح فى أول الأمر. وظهر أنها لرجل حتى كان يرتدى ملابس. وكان بجوار جمل الصارى المعدنى للزورق الوحيد الذى يقف فى الميناء إنه الشرطى الوحيد بالجزيرة. وبسرعة مذهلة أطلق الرجل النيران ليسقط رجل البوليس على الفور على الأرض تطورت الأمور بسرعة. وفى ذهول انسحب الإيطاليون الأربعة الى زورقهم.. ولكن بعد أن حلق بهم رجل المجنون. شاهرا سلاحه. مهددا

تصميم محمد ابراهيم

قائد الزورق بالتوجه إلى الجزيرة القريبة ، حيث اليخت الأبيض الجميل . مثل الثور الذى فى سباق مجنون للبحث عن مصارعه الحمراء . فى هذه الأثناء حدث ليس غريب إذ لم ير أحد القاتل وهو يستقل الزورق الذى غادر الميناء بطريقة طبيعية . كما فعل الآخرون . ولم تتضح حقيقة الأمر إلا بعد الظهر ، عندما وصلت القوات النظامية التى ضمنت المئات من رجال الأمن ، ولم تسفر تحرياتهم عن أية نتيجة حاسمة . ولم يشك البوليس فى أمر هذا الزورق إلا عندما لم يرد على نداءاته اللاسلكية المتكررة . فمن المعروف أن أصحاب هذه الزوارق يستخدمون الأجهزة اللاسلكية التى غالبا ما تكون معطلة .

وفى حوالى الساعة الثالثة حلقت الطائرة الهليكوبتر - طبقا لمعلومات بعض الملاحين فوق نقطة صغيرة اتضح أنها زورق بخارى . فاقتربت الطائرة منه ، وكان هو الزورق الذى يحمل الرجل الهارب ، الذى اندفع وسط المياه ناحية الجزيرة المنشودة .

أحد قائد الطائرة يهبط أكثر فأكثر ، حتى كاد يلمس قصبة صيد أسماك الترنة . وتلقى الطيار إشارات المراقبين . فاعتقد فى أول الأمر أنهما تريد ان منه الابتعاد . ولكن عندما زاد صراخهما بسبب الضوضاء التى يحدثها صوت المحركات . فهم أخيرا أن المجنون فوق الزورق . يحتجز الرجلين داخل كابينة القيادة . . وعن طريق جهاز اللاسلكى بعث الطيار بإشارة عاجلة لرجال السواحل محددا الاتجاه والمسافة وبطول الشاطئ الغربى ، فى حوالى الساعة السادسة مساء . بدأ الزورق يقترب ببطء من الميناء ، وبعد أن توقف استعدادا للوقوف ، بكل اطمئنان وارتياح وثقة ، استقبل رجال الأمر الركاب الأربعة متسائلين عن الرجل المجنون . فأجابهم الركاب على الفور بأنه غادر الزورق ، وعلى بعد مائة أو مائتى ذراع فضل الرحيل داخل زورق صغير . وكان هو الرجل الإيطالى الذى يبحث عن اليخت الأبيض الجميل .

وبعد أن أخطر البوليس اليونانى المكتب المركزى الوطنى للأنتربول فى أثينا ، طلب من مكتب روما معلومات عن هذا الرجل الإيطالى الهارب . وعلى الفور كشف الأنتربول عن شخصيته فكل المطلوب من رجال البوليس الآن هو أن يعثروا على اليخت الأبيض قبل ان يعثر عليه القاتل . لكن من المعروف أن بعض الثيران لها ردود فعل عربية وغير متوقعة على الإطلاق ، فقد رحيل القاتل لم يهدأ لحظة . . أثناء هروبه الأخير أوقف سيارة على الطريق تقودها امرأة فرنسية فى الأربعين من عمرها . وبجانبها ابنتها الشقراء الحسناء ذات الستة عشر ربيعا ، وطلب من المرأة أن توصله إلى الميناء . . وعندما شكت المرأة فى مظهره ترددت بعض الشئ . لكن الرجل لم ينتظر ، وأخرج سلاحه مهددا إياها . وبما أن للسيارة بابين فقط اضطرت الفتاة الصغيرة للنزول . ليركب الرجل فى المقعد الخلفى ، وحتى تكونا تحت حراسته . ولكن أمام نظراته المجنونة شعرت الفتاة الصغيرة بالرعب وأخذ الرجل يتفحصها من قدميها حتى شعرها الأشقر . وعندما بدأت السيارة فى التحرك جذبها من شعرها الأشقر الطويل . فالتصقت الفتاة جامدة بالمقعد ، وأخذت تصرخ حتى يتركها لكن المجنون أخذ يردد : « عندما أتركك . . . » .

وبقيت الحملة معلقة . فالرجل مجنون من شدة الثورة والغضب الذى اجتاحه فجأة أمام هذا الشعر الأشقر . . وبدت نظراته مخيفة . . وبلا تردد استمرت المرأة فى قيادة السيارة بسرعة مذهلة . وعيناها لا تفارقان ابنتها المسكينة الشاحبة الوجه ولم يقطعها من هذا الموقف سوى حادث عارض . فأثناء دخولهم الميناء ، وعند بداية الطريق . اصطدمت المرأة بأتوبيس عام . وأمام دهشة الركاب قفز الرجل من السيارة هاربا بعد أن أطلق ثلاث طلقات فى الهواء فى اتجاه السائق الذى نزل على الفور من مكانه ليمسك به . ولكن الرجل المجنون احتل فى لمح البصر .

وفى صباح اليوم التالى أذيع النبأ المؤسف على سكان الضاحية الذين أخذوا يتحدثون بدورهم بين المارة عن قاتل الشقراوات . حتى رجال البوليس أنفسهم بدأوا يشكون فى إمكانية الإيقاع بالقاتل . فالجزيرة الحديدة واسعة شاسعة .

فى الصباح استوقف القاتل على زورق صغير ، وتمكن من عبور الخليج إلى مكان يبعد حوالى عشرين ميلا .

والغريب أنه أثناء رحيله خطف امرأة أخرى ، شقراء فى الخامسة والثلاثين من عمرها ، قادها بين الصخور . وبعد الاعتداء عليها قتلها ثم ترك إياها بالسكين .

وعن طريق بعض الصور التى قدمها مكتب الأنتربول ، تعرف البوليس اليونانى على القاتل الذى دخل قرية صغيرة وسط الجبال . وبدا المجنون بذقنه الطويلة وملابسه القذرة التى تحمل بقع الدماء . . تملا من شدة التعب ، وبالرغم من ذلك أخذ يتبادل الطلقات مع رجال البوليس الذين تتبعوه فى كل مكان وفى النهاية استقرت احداها فى قدمه ، لكنه فى مثل هذه الحالات من الجنون لم تمنعه الإصابة من مواصلة الهرب .

وفى هذه الأثناء عثر بوليس السواحل على « اليخت الأبيض » الذى وجد محتشا فى هدوء روماتيكى فى فتحة جبلية صغيرة .

وفوق الخليج حلقت الطائرة الهليكوبتر التى تولت حراسة الشاطئ كله . وفى دهشة تلقت الماليكان صاحبة العيون الزرقاء النبأ المفزع الذى سبب هجرانها ، وتصدع حياتها الزوجية . وطلب رجال البوليس من المرأة وصديقها الكاتب المعروف البقاء وسط الماء فلا داعى للنزول الآن إلى الشاطئ . .

وقفت المرأة الشابة فوق اليخت تنظر حولها . تتأمل هذا المنظر الطبيعى الخلاب وتلك الصخور المتراصة . وهذه المياه الشفافة . وتلك الرمال الذهبية التى تحيط بها الغابات الشوكية . وهذه النباتات الغريبة التى انبثت فوق المرتفعات . حتى هذه اللحظة لم تر المرأة أمام عينيها سوى تلك الصور الرائعة . ولم تشعر أن الثور الجريح حقيقة هناك فوق الربوة وبين الصخور ، لكنه عند أسفل حائط من الحجارة . ظهرت من بعيد أشباح خضراء تتحرك فى زيها الرسمى ، وتحرك القاتل مجنون ، وبدا كأنه معلق بين السماء والأرض ، ووسط المياه الصافية لمع اليخت الأبيض . وقد وقف بجانبه زورق بوليس السواحل ورجال الأمن وهم يتحدثون إلى « مصارعه » الشقراء . . ومن مجنه لم يتمكن الرجل من إصابة الهدف . لكنه لو استطاع أن يصل إلى هذا المنزل الموجود إلى اليمين وسط هذه المزرعة القديمة على حافة الشاطئ الصخرى . لأمكنه اطلاق الثيران .

وزحف الرجل متسللا ، واندس أخيرا داخل المبنى القديم ، على حافة الشاطئ الصخرى . لكنه أثناء الدخول لمحته امرأة عجوز . كانت ترتدى الملابس السوداء ، ووجهها محمد ذابل ، تعيش وسط هذه الجبال ، وهى من سلالة جريئة باسلة . لشعب لم يعرف القهر أبدا حتى أمام الزحف التركى أو النازى . . فهى لاتعرف الخوف ، لكنها تعرف كل شئ لقد سمعت الأنباء فى الإذاعة ، وتعرفت على القاتل الذى أصابه العمى من شدة الغضب والثورة . وبعد أن أوشك على الوصول إلى هدفه لم يعر المرأة العجوز أى انتباه . فأمسك بسلاحه وقد احتفظ فى جيبه بخصلة شعر شقراء وصعد السلم الذى يؤدى إلى الدور الأول . نظرت المرأة العجوز إلى أعلى ، متتبعة خطوات الرجل . ثم بهدوء ولقة تناولت بندقية ، كانت تحتفظ بها على الحائط خلف الباب . مزودة بطلقتين فقط . وعندما سمعت وقع خطواته وهو يقترب من النافذة . رفعت بندقيتها إلى السقف وضغطت على الزناد . لتخرج الطلقة الأولى . أما الطلقة الثانية فقد احتفظت بها داخل البندقية وهى مصوبة نحو السلم استعدادا لهجوم مفاجئ . لكنها لم تكن فى حاجة لهذا . لقد دوى صوت مزعج اهتز له السقف كله . وتطايرت الأتربة داخل الحجرة الواسعة فى الدور الأول ، وسقط الجسد الضخم على الأرض .

ومات الثور . . لكن « مصارعه » الحسناء لم تعرف الشفقة عليه حتى هذه اللحظة .